الصوفية فى الإسلام

بقلم البكباشى عبد المنصف نور الدين

ان كثيرا من الناس من أبناء هذا العصر يحسبون أن الصوفية بقضها وقضيضها تراث قديم مهجور ولكنهم مخطئون فى زعمهم هذا فانهم سيعلمون غدا أكثر مما يعلمون اليوم أن الانسان لن يستغنى فى حياته يوما عن الصوفية فى ناحية من نواحيها لان رياضة النفس ضرورة لازمة كرياضة الجسد وأكثر ما يلقاه الناس من عنت فى هذا العصر الحاضر انما هو انفلات زمام الانسان من يديه وهو أحوج ما يكون الى هذا الزمام كما أنه لا غنى له فى علاج جسده عن بعض الحرمان باختياره وعن بعض الشدة برضاه وأحرى أن يكون ذلك شأنه فى سياسة نفسه .

ولقد أصاب المهاتما غاندى قديس الهند المشهور حين قال : « اننا فى زمن الجحود بحاجة الى هذه الروح الصوفية التى تعبر عن جوهر الدين لجميع المؤمنين » .

ان الصوفية الاسلامية هى الجانب الذى يفهمه كل من يفهم روح الدين ولو لم يكن من المسلمين وانها هى الحكمة العميقة التى لا يحجبها اختلاف الشعائر والتكاليف بين الديانات .

ولقد شهد قديس الهند العظيم أن الاسلام قد أخرج للعالم طرازا عاليا من الصوفية ولو أنه على ما يظهر لم يفرق بين الصوفية والرهبانية فى غير الاسلام . فمما لا شك فيه أنه لا رهبانية فى الاسلام كما هو معلوم بنص القرآن الكريم « **ورهبانية ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان** » فيجب أن نفرق بين الصوفية والانقطاع عن الدنيا « الرهبانية » فالديانات الاخرى قد أخرجت من النساك المنقطعين أكثر ممن أخرجهم الاسلام من المتصوفين بغير شك . الا أنه يختلف الامر عند الكلام عن كل منهما . فان أقوال الصوفيين وآرائهم فى كل باب من أبواب الحكمة الالهية لتملأ الاسفار الكبار وهى أكثر بكثير من أمثالهم فى جميع الديانات الاخرى .

والصوفية أنواع ومذاهب وكل نوع من أنواعها وكل مذهب من مذاهبها قد كان له أئمة وأشياع بين المسلمين .

---

(١) نقلا عن مجلة « كلية البوليس »

فقد دان بالاسلام كما هو معلوم أناس من الهنود والفرس كما دان به العرب واخوانهم من الساميين ولكل أمة من هذه الامم مزاجها ولكل مزاج أثره من الوجهة الصوفية فلا عجب ان شمل الاسلام كل نوع من أنواع الحكمة الصوفية عرفه المتديتون .

وليس فى استطاعتنا الالمام بهذه الانواع جميعها ولو بالاجمال الشديد ولكننا نحيط بمدلولاتها الكبرى عل ذلك يهدينا الى ما ينطوى تحتها من الفروع .

فالصوفية من حيث الموضوع نوعان عظيمان : نوع العقل والمعرفة ،ونوع القلب والرياضة .

وهى من حيث علاقتها بالدنيا نوعان كذلك : نوع يتخطى الدنيا وينبذها ونوع يمشى فى مناكبها ويصل منها الى الله الخالق جل وعلا .

فمن الصوفية العقليين طلاب المعرفة الغزالى ، ولا يكاد يعرف فى عقول الفلاسفة عقلا يفوق عقل الغزالى فى قوة التفكير ولا يكاد يعرف موضوعا من موضوعات الحكمة الالهية لم يلتفت اليه محيى الدين بن عربى .

هؤلاء الصوفيون العقليون يذهبون بالعقل الى غاية حدوده ولا يتهيبون الشكوك والاعتراضات بل يقولون بلسان الغزالى أن الشك أول مراتب اليقين ولكنهم متى بلغوا بالعقل غايته ملكتهم نشوة الوجدان فأسلموا أمرهم كله الى الايمان .

وليس اشتغالهم بالعقل بمانع لهم أن يشتغلوا بالرياضة النفسية وانما يشتهرون بأفكارهم لانها الصلة بينهم وبين قرائهم ومريديهم وتغلب شهرتهم بالفكر على شهرتهم بالرياضة .

أما الصوفيون القلبيون فهم يلتمسون المعرفة المباشرة برياضة النفس على قمع الشهوات وعندهم أن شهوات الانسان هى الحائل بينه وبين النور فاذا ملك زمامها وأفلت من قيودها تكشف له النور فوصل الى مرتبة العارفين وأغناه صفاء نفسه عن بحوث الباحثين .

وهذا النوع من الصوفية يرفض الدنيا لانها وهم وغشاوة مزينة كالطلاء الذى يوضع على المعدن الخسيس فتخاله الانظار معدن نفيس .

ومن الصوفية نوع آخر يخوض غمار الدنيا ويسبر حقيقة نفسه بتجاربها وغواياتها وعنده أنها جميلة لانها من خلق الله وكل ما يخلقه الله جميل .

وهذا النوع من الصوفية فى رأينا أقرب أنواعها الى الاسلام ولا حرج على المسلم أن يرى للدنيا ظاهرا خداعا وباطنا صادقا أجمل من ظاهرها فان قصة الخضر مع موسى عليهما السلام تدور كلها على التفرقة بين الظواهر والبواطن فى الاحكام والنيات .

الا أن الصوفى المسلم يقاوم مطامع الدنيا لانها تحجبه عن حقائقها العليا ويضربون المثل لذلك بالغزالى الظمآن فى الصحراء فلا حرج عليه أن يطلب الرى من الماء ولكنه اذا غفل عن نفسه لم يسلم من خداع السراب فيتردى فى الهلاك فاذا أصابه الظمأ فليعلم موارد الماء وليكن على حذر من موارد السراب وليفرق كما يقولون بين سراب لا شراب فيه وبين شراب لا سراب حوله وتلك هى الرياضة التى تستفاد من قمع الشهوات ٠

والدين الاسلامى قد انتشر فى أقطار شاسعة كانت فيها من قبله عبادات وثنية وغير وثنية وقد تسرب بعضها الى أبناء تلك الاقطار واختلط بعضها بالعقائد الاسلامية من طريق الوراثة والاستمرار ولم يسلم التصوف من تلك الاخلاط فاقترن فى أقوال أناس من المنتسبين الى الاسلام بما يجوز وما لا يجوز ٠

ويمكن أن يقال أن الاسلام ينكر من تلك المذاهب مذهبين منتشرين فى الصوفية على العموم ٠ ينكر مذهب الحلول كما ينكر المذهب القائل بوحدة الوجود ٠

فلا يقر الاسلام مذهبا يقول بحلول الله فى جسد انسان أو فناء الذات الانسانية فى الذات الالهية ٠ واذا تحدث المتصوف المسلم عن الفناء فسره بفناء الشهوات أو فناء الانانية وحلول محبة الله محلها من القلوب والارواح٠

ولا يقر الاسلام مذهبا يقول بوحدة الوجود أى أن الكون كله بسمائه وأرضه ومخلوقاته العلوية والسفلية هو الله ٠

واذا أجاز المتصوف المسلم معنى من معانى الوحدة الوجودية فهى عنده وحدة الفضائل الالهية ووحدة التوحيد ٠

وقد يوفق المسلم الصوفى بين الظاهر والباطن فيقول أن الشريعة من غير الحقيقة رياء وكذب وأن الحقيقة من غير الشريعة اباحة وفسوق ٠

وقد يوفق بين أمور الدنيا وأمور الاخرى بمذهب وسط بين الطرفين فليس الزاهد عنده من لا يملك شيئا بل الزاهد عنده من لا يملكه شىء فهو مالك للدنيا غير مملوك لها بحال ٠

عبد المنصف نور الدين

***